«مجـد» برغسون

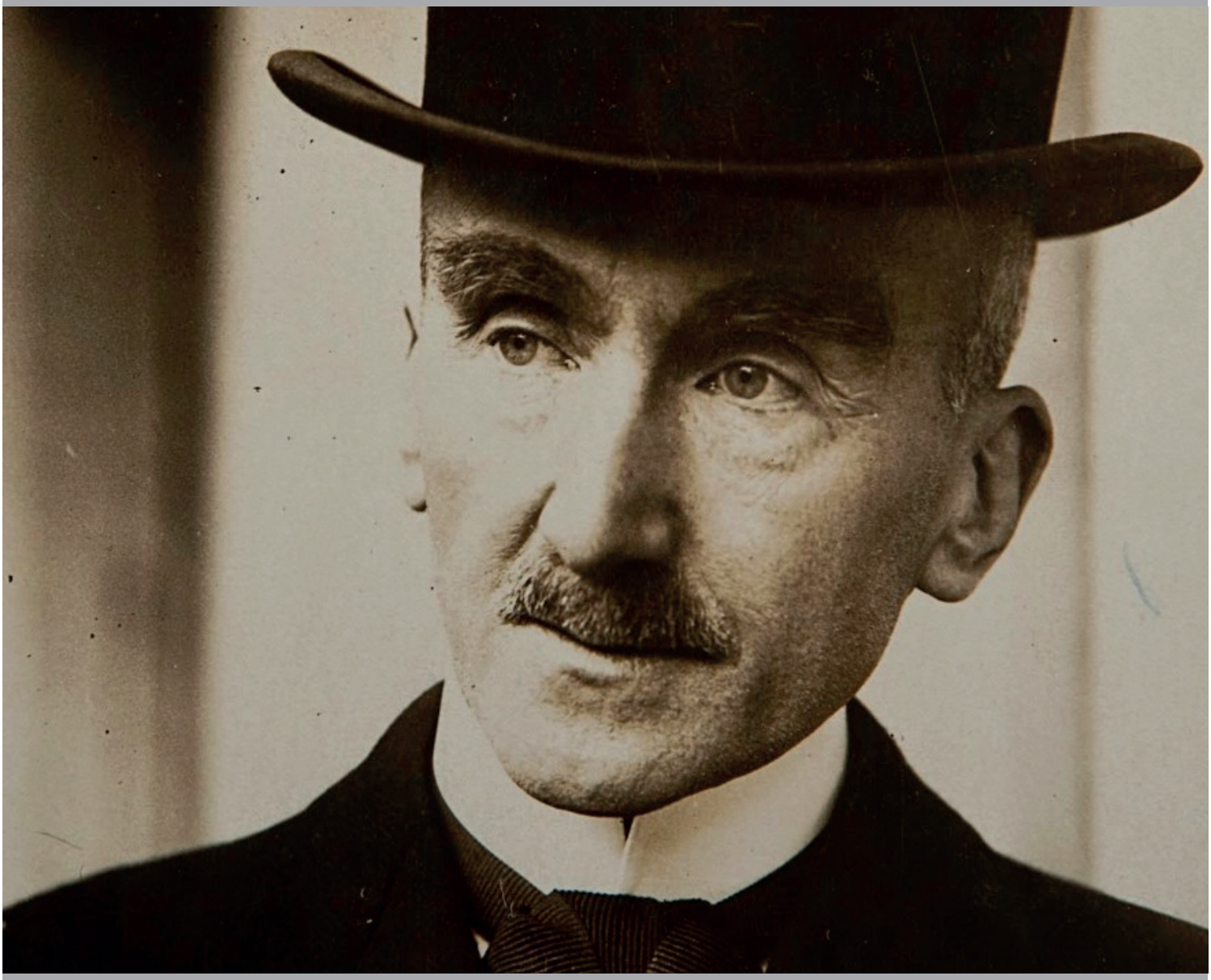

دومينيك كومب
ترجمة: حمادي أنوار

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

«مجد» برغسون[1]

دومينيك كومب Dominique Combe

ترجمة: **حمادي أنوار** (المغرب)

[1] Combe Dominique, «La «gloire» de Bergson». Etudes, 2004 /10 Tome 401, p: 343-354. Article disponible en ligne à l'adresse: http://www.cairn.info/revue-etudes-2004-10-page-343.htm

فقط سارتر وكامي في خمسينيات القرن 19م، وفوكو، دولوز، دريدا، ورولان بارت في السبعينيات من القرن نفسه، يمكنهم إعطاء فكرة عن شهرة برغسون قبل الحرب، وهي شهرة تجاوزت، إلى حد بعيد، حقل الفلسفة:

تأثير فلسفة السيد برغسون على جيلي، يقول الشاعر والأديب تانكريد دو فيزان Tancrède de Visan[1]، لا يضاهيه إلا تأثير ديكارت على مالبرانش، أو تأثير هيوم على كانط. إن أردنا توضيح الصورة بشكل جيد، فإني سأقول إن كتاب: «بحث في المعطيات المباشرة للوعي» وكتاب: «المادة والذاكرة» لعبا، خلال القرن 20، دوراً مثيلاً لما شكلته السيدة الألمانية دوستايل، بالنسبة إلى الرومانسيين الفرنسيين الأوائل.

إن الأهمية الجوهرية لمؤلَّف برغسون «بحث في المعطيات المباشرة للوعي» Essais Sur Les Données Immédiates De La Conscience لا تتعلق، فقط، بالنقاشات التاريخية التي تربطه بتطورية سبنسر، وبسيكولوجيا ريبو أو فوندت، كما هو شائع اليوم لدى مؤرخي الفلسفة والسيكولوجيا، ولا حتى بأفلاطون، ديكارت، وكانط. فالمسألة لا تبلغ درجة معرفة موقف برغسون إزاء كل من المثالية، العقلانية، الوضعية، المادية، والروحية نفسها، حسب التصنيفات المعتمدة في تاريخ الفلسفة، ولا حتى موقفه من علم وفنون وآداب عصره؛ لأن نشر كتاب «بحث في المعطيات المباشرة للوعي» من طرف دكتور في الفلسفة، في الواحد والثلاثين من عمره، هو، فوق كل اعتبار، حدث حاسم وفاصل، ليس فقط بالنسبة إلى تاريخ الفلسفة، بل لتاريخ الأفكار والآداب والفنون خاصة. يجب أن يرتبط «مجد» برغسون، بالضرورة، بأمجاد بروست، شارل بيجي، كلوديل، فاليري، مونيت Monet، ديبوسي Debussy، بل وحتى بمجد تين Taine في زمانه. فشوبنهاور، نيتشه، وأبعد منهم قليلا، كييركيجورد، هم الوحيدون الذين كان لهم تأثير مشابه لتأثير برغسون، على الآداب والفنون في أوربا بأكملها. ليس هناك أي فيلسوف آخر كان معاصراً لبرغسون - ولا حتى هوسرل مكتشف الفينومينولوجيا- مارس أي تأثير خارج نطاق الفلسفة. فهذا القرب من الأدباء والفنانين والمفكرين هو ما ساهم في جِدة برغسون، وأكسبه مكانة خاصة في الحياة الفكرية لعصره.

فلسفة جوانية

يثير حدس «الديمومة» المعاشة، في مقابل الزمان المكاني، ما يسميه بيجي بـ «الثورة الجوانية. على العموم، يقترح برغسون «فلسفة جوانية» تنطلق -وذلك قبل الفينومينولوجيا- من التجربة المعيشة للوعي. إن إدراك الزمان، المكان، الحدس والمعرفة العقلية، الذاكرة، الحرية، الطاقة الروحية، والتطور الخلاق، تقع في مركز فكر «الحياة»، الذي قطع مع المثالية التأملية، وكذلك مع المادية والوضعية. على غرار لوحات مونيت، التي أتاحت إمكانية رؤية تغيرات الضوء عبر الزمن، أو ما خلفته معزوفات ديبوسي، وخصوصا

1 L'Attitude du lyrisme contemporain, Mercure de France, 1911, p. 424-425.

«Pelléas et Mélisande»، من أصداء وانطباعات، فإن برغسون قد حرر الفلسفة من قيودها وتقاليدها الأكاديمية، من أجل استقبال «الأشياء نفسها» أو على الأقل الانطباعات التي تثيرها مباشرة في الوعي. بهذا المعنى، ظهر برغسون كفيلسوف الملموس أو العيان كما أراده جون فال.

ستتأكد سمعة الأستاذ الشاب بكتابه «المادة والذاكرة» Matière et Mémoire 1986، الذي أعاد الاشتغال فيه على السؤال الميتافيزيقي حول العلاقة بين الروح والمادة، ثم بعد ذلك بقليل من خلال مقال له تحت عنوان «مدخل إلى الميتافيزيقا» سنة 1903، الذي سيلخص فيه مضامين كتابه «التطور الخلاق» l'Evolution Créatrice 1907. ثم ندوته الشهيرة حول «الحدس الفلسفي» سنة 1911، ويضاف، بعد ذلك، نقاشه مع أينشتاين حول النسبية في كتاب «الديمومة والتزامن» Durée et Simultanéité 1922. ثم ستأتي بعد ذلك مجموعة من المقالات والندوات في كتاب «الطاقة الروحية» l'Energie Spirituelle 1919، و«الفكر والمتحرك» La Pensée et Le Mouvant سنة 1934، وكذلك «منبعا الأخلاق والدين» Les Deux Sources de la Morale et de la Religion 1934. أصبح برغسون، بعد ذلك، أكبر وأشهر فيلسوف على الإطلاق، رافعاً مشعل التقليد الطويل الموروث عن مان دو بيران Maine de Biran، ورافيسون Ravaisson. أمام المذهب الوضعي المنتشي، والمادية البيولوجية، والتشاؤمية الشوبنهاورية، في نهاية القرن، تقف بالإزاء الروحية البرغسونية، كفكر مهيمن على الفترة بين الحربين.

ميلاد البرغسونية

بعد نشر كتاب «بحث في المعطيات المباشرة للوعي»، والشهرة التي اكتسبها، كان برغسون حينها، قد أصبح معلماً لكل جيل الثمانينات من القرن 19؛ يعلم التفكير، ومن بين من تأثر به ثيبوديت Thibaudet. إنه فيلسوف من نوع خاص، فيلسوف فريد «من آخر طراز»، لقد حمل برغسون مشعل فيكتور كوزان في زمانه، وأكثر من ذلك رينانRenan، وخصوصاً تين. في المشهد الفلسفي للجمهورية الثالثة، لم يكن هناك من يمكنه مضاهاة برغسون، سوى ألان Alain، الذي كان أيضا أستاذاً في Khâge، والذي أصبح مؤرخاً إنسياً في سلسلته الطويلة «Les Propos». فكيف للصارم الكادح برونشفيج، صاحب الأطروحة المهمة «صيغة الحكم 1894» La Modalité du Jugement، والعديد من المؤلفات حول «حياة الروح»، وهو الأستاذ المتمكن جداً في السوربون، أن يستطيع، مع ذلك، منافسة صاحب كتاب «بحث في المعطيات المباشرة للوعي»؟

لقد غذّى فكر برغسون، كذلك، كل من: العلوم الإنسانية؛ خاصة سيكولوجيا موريس برادين Maurice Pradines، وهنري دولاكروا Henri Delacroix (اللغة والفكر 1926)، واللسانيات السوسيرية لشارل بالي Charles Bally (اللغة والحياة). إضافة إلى سوسيولوجيا دوركهايم، وأنثروبولوجيا كل من ليفي

بريل Lévy-Bruhl (العقلية البدائية 1923) وتيهارد دو شاردان Teilhard de Chardin، الذي تأثر بالبرغسونية.

عرفت كتب برغسون انتشاراً واسعاً، كما يشهد على ذلك العدد الهائل من الطبعات المتكررة بوثيرة سريعة، والترجمات المتعددة لكتبه، ابتداءً من سنة 1911 إلى اللغات: الإنجليزية، الألمانية، الإسبانية، والروسية، وغيرها. وهو تأثير كان من الناذر لفيلسوف فرنسي أن يحقق مثله: في الولايات المتحدة الأمريكية أثر في وليام جيمس، ونظريته «سريان أو تدفق الوعي Flux de Conscience». وفي البرازيل كذلك، وفي العالم بأسره تقريبا.

ستبدأ، بعد ذلك، العديد من المؤلفات حول برغسون في الظهور[2]: فقد ظهرت البرغسونية بعد كل من النزعة التشاؤمية، والوضعية، وقبل الوجودية. وكلها نقاشات ومنازعات قسمت الأوساط الفلسفية في فرنسا، وخارجها.

أدت البرغسونية إلى ظهور تيار فكري (شأنها، في ذلك، شأن الشوبنهاورية، والنيتشوية، سنوات قبل ذلك، وكذا الوجودية من بعد.) هيمن على تلك الحقبة من الزمن، إلى أن أصبحت مذهباً، رغم معارضات برغسون، الذي لم يكف عن مناهضة تصلب الأنظمة التي تسعى إلى جعل دروس الفكر جامدة ومتحجرة. فالبرغسونية كنزعة أو تيار أو مذهب، لم ترِد في مؤلفات برغسون، كما هو شأن الملارمية Le Mallarméisme أو الرمزية Le Symbolisme، لدى ملارمي Mallarmé، الذي اعتُبِر، هو الآخر، من قبل تلاميذه، كأستاذ و«رئيس مدرسة».

رغبة منها خلال عشرينيات القرن 19، في إنجاز سلسلة من الدراسات حول «ثلاثين سنة من الحياة الفرنسية» اختارت المجلة الفرنسية الجديدة N.R.F كل من باريس Barrès، موراس Maurras، وبرغسون، باعتبارهم النماذج الأكثر تمثيلية لحقبتهم. وكُلّف الناقد الأدبي الشهير ألبير ثيبوديت Alber Thibaudet، الذي كان تلميذاً لبرغسون، بإنجاز بحث مطول، في جزئين، حول حياة برغسون، وذلك بمثابة تكريم له.

بعد ملارمي سنة 1912، نشر ثيبوديت كتابين كبيرين سنة 1923 حول «رواد» الحياة الفكرية في السنوات العشرين الأولى من القرن 19. وهما فاليري Valéry وبرغسون؛ اللذان كان كلاهما أكاديمياً وأستاذاً في الكوليج دو فرانس Collège de France. فاليري، الذي كان وفياً لديكارت، كان متحفظاً إزاء البرغسونية، على الرغم من مرجعيته إلى «زينون» في كتابه «Le Cimetière Marin» الذي أثار بقوةٍ

2 H. Höffding, La Philosophie de Bergson (1910); E. Le Roy, Une philosophie nouvelle (1912); J. Maritain, La Philosophie Bergsonienne (1926), ouvrage «autorisé» par Bergson.

مفارقته الشهيرة، التي - انطلاقا منها- ميز برغسون بين الديمومة والزمان المكاني. إلا أنه نال شرف تلاوة نص مدح برغسون والثناء عليه، في جنازته سنة 1941 بالأكاديمية الفرنسية.

كاتب كبير

إن المدح الذي حظي به برغسون من قِبل تانكريد دو فيزان، الذي أنهى بحثه حول «توجه النزعة الغنائية المعاصرة» سنة 1911، بفصل خصصه كاملاً لفلسفة برغسون، في علاقتها بالنزعة الغنائية المعاصرة، لم يكن مدحاً من فيلسوف، بل من شاعر، رأى في برغسون شاعراً غنائياً حقيقياً منسجماً تماماً مع الشعر في زمانه.

لقد كان تانكريد دو فيزان يستمع لبرغسون في الكوليج دو فرانس منذ البداية، وحتى قبل أن تصبح دروسه رسمية. واستهل مؤلَّفه (الضعيف) «Paysages Introspectifs» ببحث حول الرمزية Symbolisme سنة 1904، أبرز فيه الدور المهم الذي تلعبه البرغسونية في فهم الرمزية.

هذا المثال، وغيره من الأمثلة الأخرى، كفيل بإعطاء فكرة عن المكانة التي تبوأها برغسون في بداية القرن 20، ليس فقط في الحياة الفكرية الفرنسية، وإنما، بالخصوص، في حقل الآداب.

عرف الأستاذ في كل من ثانوية كليرمون فيران، كوليج رولان، ثانوية هنري الرابع، ثانوية لويس لوغران، ثم في شارع أولم Ulm (المدرسة العليا للأساتذة)، تألقاً منقطع النظير، وهو ما قاده إلى التعيين في الكوليج دو فرانس سنة 1904، وفي أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية سنة 1914، إلى أن وصل إلى الأكاديمية الفرنسية سنة 1918.

لقد كُلّف برغسون الفيلسوف بمهمات أثناء الحرب العالمية الأولى، خاصة مع الرئيس الأمريكي ولسون، وخلال المدة من 1922 إلى 1925 عُيِّن رئيساً للجنة الدولية للتعاون الفكري التابعة لعصبة الأمم. شاغلاً بذلك منصباً حيوياً وفعالاً في المجال الثقافي. يبدو أن برغسون قد أبان عن علو كعبه في مجال الآداب، وهو ما جعل جمهوراً واسعاً يعرفه، في البداية، ككاتب كبير، وهو ما خَوَّل له الحصول سنة 1928 عل جائزة نوبل للآداب.

ارتباطاً بتهشيم الاصطلاحات الميتافيزيقية الموروثة عن النزعة المثالية، بحث برغسون عن طريقة جديدة للتفلسف، طريقة تكون أقرب من الواقع الحسي، ومن التجربة المعيشة. واكب هذا الانعطاف صوب الملموس - كما يقول جون فال - أسلوب آخر في اللغة اليومية المشتركة. برغسون، بهذا المعنى، هو فيلسوف «اللغة الاعتيادية»، المتاحة للجميع - باعتبار صعوبة الإشكالات التي عالجها، مثلاً، في «المادة

والذاكرة»-، أو على الأقل للمتعلم غير الفيلسوف. في الواقع، لم يكن هذا الأسلوب جديداً، فبرغسون بعث من جديد إرثاً فلسفياً فرنسياً، يعود أصله إلى ديكارت، باسكال، روسو، مان دو بيران، وخصوصاً رافيسان الكاتب المرموق، وصولاً إل غابرييل مارسيل، وسارتر. بهذا المعنى، فإن جائزة نوبل كانت - قبل سارتر- الإشارة الوحيدة لتميز هذا الأسلوب في الكتابة، الذي جعل من برغسون يحمل لقب «الشاعر الفيلسوف»، في اللغة الفرنسية، ويكون بذلك خليفة كل من «سالي بريدهوم Sully Prudhomme» و«مايترلينك Maeterlinck» الشاعر، المسرحي والباحث.

كاتب فيلسوف

على الرغم من قلة أتباعه في الجامعة، إلا أن برغسون كان، بامتياز، فيلسوف المثقفين، الفنانين، والكتاب، الذين كانوا يحضرون دروسه. أمثال تانكريد دو فيزان، شارل بيجي، بول فاليري، طوماس إليوط T.S Eliot، وأنطونيو ماشادو Antonio Machado.

ليس بالغريب أن الكل - مثلاً سانت جون بيرس Saint-John Perce المعجب كثيرا ببرغسون - «يكره فلسفة أساتذة الفلسفة» وفي مقدمتهم ألفريد جاري Alfred Jarry، الذي كان يحضر دروس برغسون، كما تشهد على ذلك النقط المودعة في مكتبة جاك دوسي Bibliothèque Jacques- Doucet (الذي تلقى وجمع كل الإنتاج البرغسوني).

«إن الفلسفة الحقيقية، ليست هي الفلسفة التي تكون الأولى من حيث الصياغة، أو من حيث البحث والدراسة. ففي أقسام دروس الفلسفة، هناك فقط، ننتصر بالاستدلالات. لكن الفلسفة لا تتماشى أبداً مع أقسام دروس الفلسفة». أنظر في كتابه الرائع «حول برغسون والفلسفة البرغسونية» المُؤَلَّف قبل وفاته، سنة 1914.[3]

إن برغسون هو نموذج لـ «الكاتب - الفيلسوف» خلفاً، في ذلك، لكل من مونتيني، ديكارت، باسكال، وروسو. إلا أنه فيلسوف متمرس ومحترف، ظل ينتقد الخطاب الفلسفي الأكاديمي. انخرط بأسلوبه الذي كان، في الغالب، استعارياً، وغير مماثل للكتابة الفلسفية «العالمة» Savante للأساتذة، في دائرة الفلاسفة الذين كانوا يُصنَّفون على هامش المؤسسة، من شوبنهاور إلى نيتشه، بل وحتى كييركيجورد، والذين أفادوا كثيراً الأدب الفرنسي منذ النصف الثاني من القرن 19.

لا غرابة، إذن، في كون الشعراء والرومانسيين الذين يكرهون «فلسفة أساتذة الفلسفة» من قبيل فيكتور كوزان، إميل بوترو، وليون برونشفيج - وهو ما كان عليه برغسون كذلك، إذا اعتبرنا شهادة إعجاب تلاميذه - أن يُفتَنوا بفصاحة برغسون، الذي قدم ما يسمى بـ «اللافلسفة» أو ضد الفلسفة Anti-philosophie.

3 Péguy, Œuvres en Prose 1908-1914, Gallimard, Pléiade.

هذه الصورة المبررة لكاتب، جعلت شهرة برغسون تبدو، في كل مرة، غامضة. كاتب - فيلسوف للكتاب والفنانين، لم يكن برغسون، على العموم، سوى هاوٍ ومبتدئ في نظر الجامعة، على الرغم من الأعمال التي أُنجزت، مؤخراً، حوله من طرف فلاسفة شباب متميزين، ومن قِبل تلاميذه المعجبين به، كـ «جونكليفيتش» Jankélévitch.

كان على برغسون أن ينتظر حتى خمسينيات القرن 20 - وبالضبط سنة 1954، بعد مرور مئة عام عن تاريخ ميلاده - لكي يُعرف عن حق وحقيقة من قبل المؤسسة الفلسفية، كما تشهد على ذلك كثرة الندوات والأطاريح، والبرامج الجامعية. ليصبح، بعد ذلك، «كلاسيكياً» في تاريخ الفلسفة، بإجماع حتى أولئك الذين كانوا يخالفونه، وهو ما لم يمنع أبداً من إعادة قراءته من جديد، من لدن كوكبة من المجددين خلال فترة الستينيات (خصوصاً دولوز الذي نشر كتابه «البرغسونية» Le Bergsonisme سنة 1966).

المجد الغامض للبرغسونية

لم يكن، إذن، مجد برغسون خال من الغموض. إنه حسب شهادة تانكريد دو فيزان، يشتكي مرارة كونه ضحى من أجل جمهور «المتسكعين»، «شباب بورجوازيون بعقول العصافير[4]». النجاح الهائل لمؤلفاته ودروسه في الكوليج دو فرانس، هناك حيث لقي إعجاباً لا مثيل له (ما جعله يتلقى باقات من الورد - كأنه مغنية مشهورة، يقول دوفيزان)، وتوفيقه في الخرجات التي كان يقوم بها (كما هو الحال مع فوكو فيما بعد) ... كلها أمور لا ينبغي أن تواري ما كانت تكنه الجامعة والمؤسسة الفلسفية، من ضغينة وعداوة لبرغسون، ومرد ذلك كله هو ارتباطها القوي بتقليد عقلاني متين وراسخ، مابعد كانطي Post-Kantienne جسده كل من رونوفييه، بوترو، وبرونشفيج، وتعلقهم بالتيار الوضعي لأوغست كونت: فبرغسون الذي حاز على جميع الأوسمة الجامعية (خريج المدرسة العليا للأساتذة، أستاذ مبرز، دكتور دولة) تم استبعاده من السوربون، وتعويضه بغابرييل سييل Gabiel Séailles، الإستطيقي، خليفة شيلينغ. وتم إبعاده كذلك من الكوليج دو فرانس (الذي كان، من دون شك، ذا سمعة ونفوذ أقل مما هو عليه اليوم) حيث وجد مجموعة، هم معجبون أكثر منهم طلبة، مادام أنه لم يشرف على أية أطروحة هناك. الدعم الذي كان يقدمه ثيوديل ريبو، الذي كان، هو الآخر، أستاذاً في السوربون، وبعدها في الكوليج دو فرانس، ومديراً لـ «المجلة الفلسفية». هذا الدعم، لم يَحُل دون تعرض برغسون للنقد، خاصة في المجلة ذات النفوذ القوي «مجلة الميتافيزيقا والأخلاق». أضحى «مُعلم التفكير» الوجهة المميَّزة لكل الهجومات والانتقادات التي تتعرض لها المثالية والروحية.

4 Op. cit, p. 428.

إن الحظوة والمكانة التي احتلها برغسون لدى الجمهور - وربما لهذا السبب - جعلته في قلب حرب كلامية حامية الوطيس، وعرضة لأعنف الهجمات، من طرف جوليان بيندا منذ سنة 1912، الذي وجد في البرغسونية مثالاً حياً لـ «خيانة الإكليروس»، ومن طرف الماركسي جورج بوليتزر في كتابه «نهاية استعراض فلسفي: البرغسونية» سنة 1929، وكذلك من قبل الطومي (نسبة إلى طوما الأكويني) جاك ماريتان الذي كان، مع ذلك، تلميذاً معجباً بأستاذه برغسون.

كان لهذه الانتقادات المتضاربة الآفاق، على الأقل، وقعاً مهماً، كما هو شأن مرافعات بيجي، وجاك شوفاليي (الشارح الرسمي)، وألبير ثيبوديت، وفلاديمير جانكيليفيتش (صاحب أول أكبر كتاب حول برغسون سنة 1931). لقد أثار انتخاب أول أكاديمي يهودي (الذي رفض، مع ذلك، التدخل في قضية دريفوس Dreyfus، ورغم صعود النازية في ألمانيا، إلا أنه رفض، تحت ضغط حكومة فيشي Vichy، كل الامتيازات، وترك وصية تشهد على ارتداده في آخر حياته) حملة من طرف الحركة الفرنسية.

ضد الوضعية

إن بحث تين «في الذكاء» De l'intelligence المنشور سنة 1870، يعتبر مثالاً مجسداً لحقبة تميزت بهيمنة المذهب الوضعي. غالباً ما كان يُنظر إلى البرغسونية - باعتبارها رد فعل ضد الوضعية - على أنها مشروع مناهض للذكاء والعقل، بالرغم من أنها عُنيت، ببساطة، بإعادة توازن القدرات، وإعادة توزيع الأدوار الخاصة بالملكات. عَرّف تانكريد دو فيزان فلسفة برغسون، مثلاً، على أنها «مجهود من أجل تكسير الدرع الحديدي للمفهوم المحض، وتخليص جسد الواقع المتحرك، نفسه، من هذه الحماية الشديدة[5]».

تحتمل كذلك محاضرة «مدخل إلى الميتافيزيقا»، التي هي نوع من التكثيف للبرغسونية، نقداً للمفهوم الكلي والمجرد، الذي لا يُبقي إلا على «خيال الجسد[6]»، ويدعو إلى «الانتقال من المفاهيم إلى الأشياء، وليس من الأشياء إلى المفاهيم، عاكساً السير العادي للعقل»[7]. في ما يخص المعرفة المفاهيمية التي «تلف حول الغرض» فقد قابل برغسون المعرفة بـ «التعاطف» مع «الحدس»، ومع الباطن، ليصبح بذلك، في نظر الشاعر، وفي نظر كل المعجبين، مفكر «الحياة». لكن أن يخص برغسون، بكل تأكيد، حدس الديمومة، بمكانة رئيسة، كأساس لفلسفة الباطن (الجوانية) Philosophie de l'intériorité، فهذا لا يمنع من التعرف على أهمية العقل، مطبقاً في مجاله الخاص به: في العقل، المكان والأنا «الظاهر»؛ في الحدس، الديمومة والأنا «العميق».

---

5 Op. cit, p. 443.

6 Bergson, Œuvres, PUF, 1959, p. 1401.

7 Ibidem, p. 1409.

كان برغسون واعياً بسوء الفهم، وكان يتوق - خصوصاً بعد كتابه «التطور الخلاق» - إلى إزالة تلك الصورة التي ارتبطت بفكره، والتي كانت، في الغالب، تنقيصية، ومترسخة في الفلسفة التجريبية والبراغماتية لهربرت سبنسر، والتي ظهرت مع بداية التأمل في علم النفس التجريبي والبيولوجي، كما يتضح في «المادة والذاكرة» و«التطور الخلاق».

إن الحدس المؤسس، المتطور انطلاقا من كتاب «بحث في المعطيات المباشرة للوعي» هو الديمومة المعاشة، المخالفة للتصور المكاني، المجرد، والمخالفة لزمن الساعات الجدارية. هذه الديمومة لا يمكن أن تكون إلا قريبة من الزمان المتخيل والمجرب من لدن الشعراء، الذين يشترك معهم في المرجعية إلى السابقين على سقراط، وخصوصاً هيراقليطس. برغسون كما نيتشه - قارئ أيضاً لهيراقليطس- هو فيلسوف الصيرورة والديمومة المعاشة، التي تتعارض مع الزمان المجرد، الهندسي، الفيزيائي، وهو بتعبير جون فال الرائع، الذي قال سنة 1943: «دفعة واحدة، انخرط فيلسوف القرن العشرين هذا، بتواضع، ولكن بثبات، في السجال الذي شُيد منذ عشرين قرناً بين زينون الإيلي وهيراقليطس».[8]

منطق حيوي

قاد هذا المنطق الحيوي إلى التعرف على استمرارية ووحدة في «السّورة الحيوية» l'élan vital. جاء كتاب «التطور الخلاق» لـ «إعادة رسم تاريخ تطور الحياة» بصورة مختلفة عن تطورية هربرت سبنسر، الذي دافع عن تكيف الفصائل والأنواع، تحت الإكراه المزدوج للحتمية والغائية. حاول برغسون في هذا الكتاب، أن يوفق بين فكرة الخلق وفكرة التطور. ضداً على التفسير الميكانيكي للوضعية. ودافع عن فكرة أن الحياة هي «خلق غير متوقع للشكل»[9] و«استمرار للانبجاس»[10] عبر الفصائل، من الجماد إلى البشر، حسب «تقسيم» السّورة الحيوية الأصلي إلى محورين متباينين: الغريزة والعقل. الغريزة متجهة نحو الدائم والمتحرك، والعقل صوب المنقطع الثابت. وهما، بالنسبة إلى برغسون، نتيجة لنفس السّورة الخلاقة Elan Créateur وهي الحياة نفسها. أخذ برغسون - ناقضاً وهم المنقطع النابع من العقل والفكر التحليلي، الذي يعتقد بالقدرة على تفريد وتثبيت لحظات خلال الزمن - الشعر كمثال، حيث تشكل فيه الأبيات الشعرية «حركة مستمرة»[11]. لقد كتب تانكريد دو فيزان[12] يقول: «الحياة عبارة عن حركية، سريان، إحساس بنمو تدريجي، سمفوني».

8 In A. Béguin et P. Thévenoz, Henri Bergson. Essais et Témoignages, A la Baconnière, Neuchâtel, 1943.

9 L'Evolution Créatrice, op. cit, p. 553.

10 L'Evolution Créatrice, op. cit, p. 706.

11 L'Evolution Créatrice, op. cit, p. 672.

12 Op. cit, p. 444.

فتح برغسون، من خلال دفاعه عن الحرية في وجه كل النزعات الجبرية، وتأكيده على القدرة الإبداعية للحياة، المجال لفكرة الفن التي رغم قلة تنظيمها اخترقت المؤلَّف بأكمله (كتاب «الضحك»). إن برغسون كاتب وإستطيقي أيضاً، كما يشهد على ذلك، ليس فقط كتاب «الضحك»، المرتكز بأكمله على نماذج أدبية، وإنما أيضاً عدد الدراسات الدقيقة حول الصورة، في الشعر، في البيت الشعري، وفي وعي الروائي. هذه الإستطيقا التي تطبع مجموع مؤلفاته - مع اختلافها عن إستطيقا خصمه المضفر في السوربون، غابرييل سييل G. Séailles، صاحب كتاب «بحث حول العبقرية في الفن» 1883، والذي طابق فيه بين العبقرية والعقل- عززت، بكل تأكيد، التقارب بينه وبين الكتاب والفنانين في عصره.

لم يكن برغسون الوحيد في مواجهة العقلانية والوضعية، على مدار القرن. في نوع من التوجه الفلسفي اللاعقلاني، كان، في الواقع، مرتبطا بنتشه، ولكن كذلك بإمرسون Emerson، في ما يصطلح عليه بـ «المذهب الحيوي».

إلى جانب البرغسونية، هناك مجموعة من الأفكار المجتمعة بشكل توليفي، حول الغريزة الحيوية، والطاقة، التي تمثل جزءاً من العقلانية. في السياق الفلسفي، الغامض قليلاً، في بداية القرن، انتهى كل من اسبينوزا، شوبنهاور، هارتمان، نيتشه، إمرسون، وبرغسون (ثم فرويد) إلى الاتفاق والإجماع على التصدي للعقلانية الجافة، وللوضعية، اللتان تتعارضان بالعقل والفكر، وواحدة تلو الأخرى، مع الكوناتوس Le Conatus، الإرادة، اللاشعور، إرادة القوة، القوة، والسّورة الحيوية، متصوَّرة تحت إشارة الحركة والفعل. ينبغي، أكثر من ذلك، أن نسجل كون ثيبوديت عرّف، بدقة، البرغسونية بأنها «فلسفة الفعل»[13].

إن الحيوية البرغسونية، التي تمتح من حدس الديمومة، تُمَكّن من فهم الصلات التي تربط الرومانسيين، الشعراء، الرسامين، والموسيقيين، ببرغسون. لأن ما يبعث أكثر على الاحتراس، بالنسبة إلى برغسون، هو «الجمود» باعتباره المهدد الوحيد، كما أكد على ذلك سانت جون بيرس S. J. Perse، في خطاب ستوكهولم Le Discours de Stockholm[14]، المنضوي كلياً تحت مبحث برغسون حول الحياة: الشعر «نمط حياة - حياة متكاملة»، «مناهض لفصل الفن عن الشعر»، «متعرف على الحياة نفسها».[15] ستنطبق، إذن، خاتمة بحث ثيبوديت حول برغسون، بشكل مذهل، على الشعر والفن في عصره.

إن رَفْضَ كل ما تَوَقَّفَ وتحقق في الأشياء، والحكم على كل ما ليس مَشْرَعاً دينامياً خالصا بأنه فاحش ومصطنعً، ومعرفة الكون على هيئة هذا المشرع الدينامي، الذي هو السورة الحيوية، ثم التعرف على

13 Op. cit, 1, p. 77.

14 Œuvres Complètes, Gallimard, Pléiade, 1972, p. 446.

15 Op. cit, p. 445.

الذات على هيئة هذا المشرع الدينامي، الذي هو المركز الحيوي للاتعين، هو ما تقوم عليه، حقاً، الفكرة، أو بالأحرى، السورة الأصلية للبرغسونية[16].

إن هذا «المَشْرع الدينامي» Schème Dynamique هو ما يعزز، بالفعل، التقارب بين فكر برغسون، ومؤلفات كل من بروست، كلوديل، مونيت، وديبوسي.

16 Le Bergsonisme, Gallimard, 1923, II, p. 242.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018